«عن معاني أصوات الحروف» — ٢

سر من اسرار العربية

نرجو ان نصل الى حقيقته في السليقة العربية

لمحمود محمد شاكر

أفضنا في الكلمة السالفة — في ذكر الحروف الحلقية، وبدأنا بالهمزة ونظرنا بعض النظر في معناها ما هو؟ وحسنٌ أن نعود الى استقصاء القول في هذه الهمزة وسائر الحروف الحلقية، واستخراج أكثر معانيها من الفطرة. ثم كيف هو دورانُها في الكلام العربي، ثم كيف تنزلُ عن بعض معانيها من تركيب الكلمة لدلالة أخرى تفضي الى معنىً يكون شارعاً من الأصل أو مستمداً منهُ أو طارئاً فيه، أو ليكون اعتراضها مسقطاً لبعض المعنى في حرفٍ آخر ليعادلَ به الى القصد في إرادة معنى بعينه ينشأ من اشتراك هذه الحروف الدالة في تركيب الكلمة. ويقتضينا هذا المذهب أن نسوقَ الى عرض بعض معاني سائر الحروف العربية في مدارج القول، اذ كان الاشتراك بين هذه الحروف في الكلمة مدعاةً للبيان عن معانيها. واذ كان ذلك كذلك، فستجد كلامنا عن هذه الحروف الحلقية مختلطاً بغيره من بيان معاني حروف أُخر من حروف اللسان العربي. وانما أردنا ذلك اختصاراً وتخفيفاً. فلو ذهبنا نفيء لكل حرف مقالاً لتعبنا الجهد، ولكان على القارىء أن يبقى منغوساً في فكره في هذا الباب أشهراً بعدد حروف العربية. ونحن إنما نجعل كلامنا هذا كالتذكرة لنا وللقراء في هذا العلم، ولأنْ ننتحر — حتى يأذن الله فيتيح لنا من الفراغ والهمة والجِدّة والتوفيق ما هو بعض نعمه علينا وآلائه — أولى وأخلقُ، ولأن يكون ذلك مخبوءاً لنا حتى نضع كتابنا في «سر العربية» — أحبُّ الينا وأجود للبيان، فان بيان الرأي — في سفرٍ من كتابٍ يؤلف الغرض بجملهُ — أحرى بالاستفاضة فيه من مجلة تحد الرأي بمحدود من الورق!

ولقد علمتَ ان ضرورة الحياة الفطرية الاولى هي التي نزعت بالحرف الحلقيّ المسنون — المسمى في عبارة المتكلمين «بالهمزة» — أن يكونَ هو أقربَ الحروف الى النداء، والتعجب، والاستفهام، والاشارة، والتنبيه، والأمر، والتحذير، وذلك لأن هذه المعاني

كلها ليست الا أقرب الحوافز التي تحفز الانسان الفطري الى ارادة التعبير لفرط حاجته الى كل منها بضرورة الطبع ، لما يلاقيه مما يصدمه ويتكسر عليه من تعاريف الحياة وتخالف الاحوال التي تُقبل عليه فتدفعه الى نداء من يسمعه من أبٍ أو ولدٍ أو أخٍ أو زوجةٍ ، أو تحمله على الاستغاثة ، بالاشارة ، أو الاغاثة بالتنبيه والتحذير . ثم لما يتجدد عليه مما يستخرج عجبه أو ما يغصب عليه مما يستغلق ويستبهم ، فيحمله الى طلب الاستفهام أو الاستنكار . ولعلك لستَ تشك في ان ذلك هو أولُ ما يبدأ الحي على الارض وما يتنازعه من الضرورة ، كما لا تشك في ان أوّل مطاوع لهُ من الصوت هو ما يصوّت من الجوف والحلق ، دون ما يكون تصويتهُ من قِبَل اللسان والفم والشفة مما هو لا يُطيع الا بالمداورة والفزّ والتمرين والدُربة على حركة بعينها مرة بعد مرة . وفي أصوات سائر الحيوان — خلاف الانسان — دليل ذلك والبرهان عليه وعلى صحة مذهبنا اليه ، فان اصوات جميع الحيوان انما هي اصوات حلقية تتردد ، الا ما كان من مثل صوت الغراب والقط والجُندب والبازي والقطا وما الى ذلك مما انفرد من الحيوان والطير بحرفٍ يتردد في مدارج قصبه أو منقطع صوته . ثم لا يكون ذلك الا حرفاً واحداً متقارباً أو بعض حرفين متجانسين يتلبس شدتهما ألفٌ أو همزةٌ مختلسة تكون بينهما فصلةً

ولما كان من أول ضرورة الحياة الفطرية أيضاً ان يلاقي الانسان من الهول ما يفزعه ويخيفه وما يتعرض لهُ من الجرح والكدم في صراع غيره من الانسان والحيوان ، وما يجد بعد ذلك من الالم والشدة ، ثم ما يحمله عليه الألم الممض من التأوه والانين والتيظ والحنق ، ثم ما هو من دواعي الفطرة الانسانية القائمة على الغرائز الاجتماعية كالذي يجده اذا توحّد وانفرد من الحنين والحيرة والتوجد — لمّا كان كل ذلك وما اليه مما يتصل به ، كان أيضاً من ضرورة الحافز الذي يستوفزه ويرتفع به الى ارادة التعبير ، ان ينحو به الى أول ما يطاوع من الاصوات ويتابع ويخف ولا يحتاج الى المداورة والتمرين

فاذا تدبرت ذلك واوعبت لنفسك اليه وفيه ، وتلمست كل الصلات والاسباب التي تمتد به الى سائر المعاني التي تنظر الى هذا الاصل او تتحايل عنهُ — عرفت انهُ لا بدَّ من اشتمال كل هذه المعاني على الدلالة الفطرية التي تدلُّ بها طبيعة الانسان عن أغراضه الاولية القديمة . فكلُّ ما يرجع أصلُ معناه أو بعض اجزاءه الى هذه الدلالة ، فالواجب لذلك إذن ان يشتمل على حرف الحلق الأوّل وهو «الهمزة ء» او على الحرف الثاني الذي يقاربه ويشابهه ولا يختلف عنه إلاّ بنفحةٍ هوائية رقيقة خفية في جوار الحنجرة وهو «الهاء ه» . فاذا تصرفت قليلاً على من هذا الاصل رقيت الى «ابي ه» ، «فخامة» ، «قلبي ء» ، «قطامة» ،

مقدِّماً « الحاء » على جميع هذه الاربعة الاخيرة لخفتها وسهولتها وسلامتها واقترانها بالحشرجة الحلوة : اللطيفة الرقيقة المنسربة في تصويتها كأهدإ السراب وأحنِّه وألينه

فاذا صحَّ لك ما نذهبُ اليه ، استخرجتَ من ذلك ضرورةً ان تكون جميعُ الألفاظ العربية — التي تدعي لها هذه الحكمة الشريفة : في إساس الحرف والكلمة شيأً من معاني الفطرة ودواعيها — مبينة كل الابانة عن هذا الرأي الذي نجري اليه ، باشتمالها على أحد هذه الحروف الحلقية . ويقتضي ذلك ان تكون كل أدوات الاستفهام والنداء والاشارة والتنبه والفزع والتحذير ، وسائر الالفاظ ذوات المعاني المقاربة لذلك — مشتملةً على أحد هذه الأحرف . ثم يكونُ منهُ ايضاً ان جميع أسماء الأصوات الدالة على صوت الانسان والحيوان والطير والحشرات قد جمعَتْ طرفاً صالحاً منها ، حين تكون هذه الاسماء — أو الأفعال — دالةً على حكاية صوتٍ حلقيٍّ يكون لهذه الخلائق . وأذن فواجبنا — بعد الذي قلناه وعرضناهُ — أن نقدِّم الدليل من ألفاظِ العربية على صحة ذلك ، وأنه طريقةٌ ممهدةٌ على لسان هؤلاء الناس من العرب . وأنهُ إذا كانَ ما نقول به ، فاللغة العربية هي حقًّا — على ما ادعيناه في الكلمة السالفة — أدق اللغات . وأكثرها احتفاظاً بالمعاني الفطرية للحروف ، وبالحركات التي لجأ اليها الانسان الأول فقرنها بالحروف للدلالة على معنىً ليس يقومُ الحرفُ على بيانه كله اذا أفردَ وحده للتعبير عنهُ

ولقد رمينا اليك — في الكلمة السالفة — طرفاً من القول في حروف الاستفهام والنداء والتعجُّب والاشارة وما يجري اليها من معنى الضمائر ، ثم في الكلمات الثلاثية المضعَّفة التي اجتمع عليها في التضعيف حرفان حلقيان وهي « أحّ » و« أهّ » و « أخّ » ، ثم كشفنا عن سمائها بعض الكشف . فالآن ننتقلُ بك إلى حروف الحلق المشتركة مع حروفٍ أخر من حروف اللسان ، ولن نستوعبَ كلَّ ذلك ، فانهُ يقتضينا — إن فعلنا — شرح اللغة كلها على مذهبنا ، وهذا إن اجتمع في كتاب جمعهُ في معانٍ يتعذَّر مرةً ويثقُل على قارئه أخرى

فلو أخذت الهمزة وبدئتْ بها في قولهم . « أبْ » ، « أتْ » ، « أثْ » ، « أجْ » ، « أدْ » ، « أذْ » ، « أرْ » ، « أزْ » ، « أسْ » ، « أشْ » ، « أصْ » ، « أضْ » ، « أطْ » ، « أظْ » ، « أفْ » ، « أقْ » ، « أكْ » ، « ألْ » ، « أمْ » ، « أنْ » ، « أوْ » ، « أيْ » . وقد أسلفنا القول قبل على « أحّ » ، « أخّ » ، « أهّ » و« أنْ » ، « أعْ » ، « أغْ » ، « آ » ، فعرفوا عنهُ وتركوهُ وأهملوهُ لما ذكرنا بعضها ، كما أسقطوا ايضاً « أقْ » ، وذلك لأن هذه « القاف » كما سامت من أوَّل مقالٍ لنا — هي الحرفُ الذي يلي مخرجهُ مخرجَ الحروف الحلقية ، فهو الحرف الثامن بعد الحروف السبعة الحلقية المدوَّنة بها في ترتيبنا . فاذ كانت الهمزة أشدَّ الحروف

مطابقةً للانطلاق وحافزها أقوى حوافز الحروف الحلقية فاتباعها بالحرف الذي يداني اللهاة وأقصى اللسان ويرتطم بالحنك الأعلى ويتردد فيه جاسياً غليظاً متعسراً (1)، يكون مثقلاً على النطق ثقيلاً في السمع. وايضاً فان القاف — هي في ترتيب الحروف الشديدة التي وصفناها لك — تلي الهمزة، وهي أول هذه الحروف الموصوفة بالشدة ثم الاستعلاء ايضاً. فهم لم يريدوا أن يجمعوها مفردة في كلامهم لذلك وقالوا «حق»، «عق» لما تعرف من صفة العين والحاء على ما يتوجه اليك من فحوى بعض كلامنا آنفاً

فنحن سنأخذ هذه الكلمات المبدوءة بالهمزة على ترتيب متّصل، وذلك بأن نفصّلها لك على مخارج الحروف التي تليها، فأول ذلك :

«أكّ» فاصل هذه المادة عندنا من صوت احتكاك الاجسام اللينة بعضها ببعض. لان الكاف تمثّل في النطق صوت شيئين لينين يبس بينهما يزحم احدهما الآخر زحماً شديداً. ولأكّه في اللغة الزحمة والضيق، وأكّه زاحمه. وهذا المعنى للكاف ثابتٌ في قولك «حكّ» و«علك» و«عكّ» الشيء سحقه، وهذه كلها حروف حلقية تتبعها الكاف، فاذا أنت أخذت في مثل «بكّ» أي زحم، و«تكّ» الشيء اليابس الرطب وطئه فشدخه و«دكّ»، و«زكّ» في مشيه قارب خطوه وحرّك جسده واحتكّ ما ثوبه «وسكّ» و«شكّ» و«صكّ» .... رأيت كلّ هذه تحتمل كأنها فيها معنى الاحتكاك أو تصويره أو مقاربة صوته (2) ولكنه في «أكّ» و«حكّ» أبين المعنيين، لأنّ الهمزة والحاء حرفان أصليان دالان على الأصوات الأولى التي هي أقرب من سواها إلى حكاية هذا الصوت (3)

ثم انك «أثّ»، «أجّ» والثاء نحن نطيعها صوتها التفشي المستطيل المتلبّس الذي يهمس به، ويصف لها الاعتماد في مخرجها حتى يجري معها النفس بين الحنك الاعلى واللسان مع انفتاح الشفتين مع الامالة الخفيفة. ويلقى هذا الصوت الاذن فيمثل صوت الحركة الخفيفة التي تكون كأنها من احتكاك الثوب المتشعب، او صوت وقوع الريش الخفيف من المطر، او صوت حفيف الورق الاثيث على أشجاره اذ تناوله النسيم المتروّح، ويمثل ايضاً صوت

فالهمزة تريد الانطلاق والقاف [illegible] الهواء، والقاف تريد ان تقطع عليه ذلك [illegible] من المخرج [illegible] التي [illegible] فيه [illegible] عليه، ويرتد اللسان بها [illegible] في مخرجها [illegible] الانطلاق [illegible] في [illegible]

(2) [illegible] حرف معنى [illegible] اشتراك الحروف دون [illegible] في [illegible] الواحدة [illegible] معاني [illegible] الاصل [illegible] الحروف [illegible] عليه [illegible] ذلك فعليك ان تنظر الى هذه الاحرف في الاصل التي [illegible]

(3) [illegible] في معاجم اللغة [illegible] تقارب معاني [illegible] هذه [illegible] في [illegible] ولكنك اذا [illegible] بما [illegible]

الضاحك اذا انقذف تَبَشّـهُ بضحكٍ خفيفة لا تبلغ القهقهة ، مع انفراج الشفتين واستعلاء الشفة العُليا . ونجد أكثر هذه المعاني دائرة في « اشّ » ، و « هشّ » ، و « حشّ » ، و « خشّ » و « بشّ » ، و « نَشّت » القدر تنش : وهو صوت غليانها ، و « رشّ » الارض بالماء . و « كَشّت الحيّة » والمرأة أيضاً الكشيشاً وهو صوت جلدها اذ حكت بعضه ببعض . ولذلك كُلّه قيل في « أشّ » ان الاش والاشاش الطلاقة والبشاشة لما يتبع الارتياح والنشاطَ والخفة والضحك من الحركة التي تستتبع هذا الصوت ، وأشّ غنمهُ كهشها ، وأشت الشحمة اذا نشّت وقطرت فسمع لها مثل هذا الصوت

وأما « أجّ » ، فقيل ان الجيم أجسى وأقسى وأغلظ صوتاً من الشين ، واللسان بها أشد ضغطاً للهواء في غار الحَنَك الاعلى ، وصوتها جافٍ على السمع ظاهر لا لين فيه ولا قطر له ولا همس يأتي من قبله — لذلك دخلت مع الشين في بعض معانيها ، ولكنها خرجت من بعضها الآخر بما أخرجها من الميزة التي مازتها عنها في مستقبل السمع . وبعد ، فان « أجّ » هذه وما يليها من « هَجّ » و « حَجّ » و « عَجّ » بالدعاء ، و « ثَجّ » المطرُ يثجّ سالَ فسمع صوت سيلانه ، و « هَجّ » ، و « لَجّ » — الجيم في جميعها دالّة على حكاية صوتٍ وصفناه بما وصفناه فأخذ منهُ « أجّت » النار و « هَجّجت » اذا اتقدت فتعالت فاستعرت فاستطارت فسمع صوت تلهّبها الذي تمثله الجيم ، كما يظهر لك اذا تدبّرته وداورته على المعنى الفطريّ للحرف[1]

وأما « أيّ » وهو الياء الذي عددناه مع الشين والجيم في مخرج الحروف الشجرية فليس هذا مكان الافاضة في ذكره ، لما نعلم مما أشرنا اليه آنفاً في بعض كلامنا من أننا نرى في الالف والواو والياء رأياً نخالف به ما ذهب اليه أئمتنا رضوان الله عليهم . وأن في سرّ تطوره من حرفٍ حلقيّ الى حرفٍ شجريّ موضعاً للنظر ، ومجالاً يجول اليه الرأي . فندعه الى موضعه الذي يتنزل عليه في اوانه ان شاء الله

واذا درجت الى « ألّ » : رأيت اللام ، وهي عندنا من الحروف ذوات المعاني المتشابكة ، وذلك ان اللسان معها يعمل اعمال حروف كثيرة . ولقد علمت أن مخرجها — مما أطلقنا — هو من أدنى حافة اللسان الى منتهى طرفه حيث يندفع اليها الهواء المقذوف من الجوف ، فيحصر اللسان هذا الهواء حصراً بين الشدة والرخاوة في الحنك الأعلى مما فوق الضاحك والناب والرباعية والثنية . وعند ذلك يتكسر هذا الهواء المحصور في جوف الفم من كلا جانبيه ، ثم

(١) أرجو القارئ ان يعذرني في الاختصار العاجل فاني وأنا أكتب هذا أكاد لا أمسك النفس عن الاستفاضة لأني أكتب وأنا أجد النفس على التأمل متثاقل عن المعاني فلا أدري . آخذ منها وأدع . وقد ذكرت في المقالة الاولى ان هذا بحث قديم أنتقيه وأنقحه ، فرب خيرٍ [illegible] الصبر . والقارئ في هذه الابحاث يستطيع — اذا تأمل — ان يصل الى مثل الذي نريد ان شاء الله

ان بعض هذا الهواء يجول في ميدان كأنهُ يروم المخرج من الخياشيم : وهو مخرج النون . فلذلك ترى هذه اللام اذا وقفت عليها في مثل « هَلْ » و « فَعلْ » ، قذفت من المنخرين نفساً خفيفاً هساً ، تنتشي معهُ الخيشَاتان(١) قليلاً قليلاً، وكذلك تجدها كأنَّ قد أُشرِبتْ من غنة النون في اكثر المنطق . وهذه الملامح الكثيرة التي اختلستها اللام من الحروف التي تليها كالنون والراء والميم، ومن الحروف التي سبقتها كالجيم والشين والضاد، هي التي راحبت من معانيها وكثَّرتها وعمَّمتها على من يروم فقهها وضبطها ، وهي ايضاً التي جعلتها اكثر الحروف دوراناً في كلام العرب للطفها وضعفها ورقَّتها حيث كانت — ولا تكون هذه الرقَّة التي بها الاَّ مشوبةً ببعض القوَّة والشدَّة ، فهي إذن أعدل الحروف وأحسنها استواء، فلا تماس على باغيها ، ولذلك ايضاً تجدها لا تدخلها العيوب التي تدخل سائر الحروف كالراء التي تليها ، وهي تدخلها اللثغة في لسان الألثغ فلا يستقيم لهُ معها المخرج ، واما ينحاز الألثغ — اذا غلبته لثغتهُ من الراء الى اللام ، فاعرف هذا وتدبرهُ وامعن نظرك له وفيه(٢)

فالقول في « أَلّ » ، و« هلّ » يفترق من القول في اللاَّم التي تلي سائر حروف الحلق مثل « حلّ » « وعلّ » ولذلك نقصر القول على « الّ » و « هلّ » ، فالألف والهاء هما عمدة باب الحروف الحلقية كما امضينا آنفاً . واللام في هذا الموضع تميل للالحاح والتردد والانتشار، ومعاناة للتحفز الذي يأتي بالصوت في اندفاعه . ألا ترى ان صوت اللام — اذا حققتهُ — شبيهٌ بالجرس الذي تسمعهُ من اصطدام شيء لين ببعض اللين بشيء من مثله فيقرع سمعك اليه فتصغي له . وعلى ذلك فمعنى « أَلّ » — ابتداء، يتضمن الاشارة الى حركة مقرونة بصوت بين بين ، فلا هو جاس غاس، ولا هو رطب مختلط بمائه . وكذلك هو في اللغة : ألَّ الفرس اذا أسرع فاهتزَّ فسمع من الرمل صوت حافره اذا وقع عليها متتابعاً متردداً، وكذلك ألَّ البرق ، وألَّت المرأة رفعت صوتها بالدعاء او غيره . والأليل من ذلك هو الانين والحنين عند الجزع ، وهو خرير الماء على التربة ، وهو صوت الحصى اذا وقع على الرمل . والقول في « هَلَّ » قريب منهُ فقالوا : هَلَّ السَّحاب وانهلّ بالمطر ، ذلك اذا قطر فوقع ماؤه فسمع صوت هذا الماء حين يصطدم الثرى والرمل بحباته في شدة انصبابه ، وتردد هذا الصوت مرة بعد مرة ، ومنهُ « أهلَّ » اذا رفع صوته بالدعاء فردَّده

فاذا صرت بعد هذا الى الحرف الذي يلي اللام وهو النون في « أنّ » ، حيث يندفع الهواء المقذوف الى الخياشيم ، فيحار فيها ويتردد ويجول ويستمع لجولانه في الانف صدًى

(١) هو حرف المنخرين — [illegible]
(٢) لا [illegible] في كل معنى [illegible] خرجت وحدها في أوراق [illegible] مقالة برأسه

ناعماً تتبعه غُنَّة مُدَوِّية باحتكاك الهواء بجدار الأنف — رأيتَ المعنى يتسلسل من اللام الى النون مختلفاً في الدلالة اختلافاً بيناً مرة ومقارباً مرة أخرى. ثم هو من أجل ذلك حرفٌ دَمِثٌ طَيِّعٌ مترقق ناعمٌ حُلو النغم لطيف الترديد يسيل مع الهواء بيناً ونعومةً ورقة، لاتدركه الجفوة التي تعرض لسائر الحروف مع التحريك اذا حرّك، فهو لطيفٌ مطاوع ذو نَغَم اذا حرّك او سكّن. فهو اذن أقرب الحروف للبيان عن المعاني الصافية التي لا تحامل أصواتها الى المادة وصوتها؛ ولذلك يدور أكثر ما يدور في الالفاظ ذوات المعاني النفسية الصافية، التي تذوب فيها آلام النفس وأحزانها وأحلامها وأفكارها التي لاتتكلم الا لحناً واشارة وتلويحاً. فكذلك هو في معناه اذا قلت: « أنّ » أنيناً، و« حنّ » حنيناً وحناناً، و« هنّ » هنيناً، وهو كالحنين والأنين؛ وكذلك « خنّ » خنيناً، وهو الانتحاب والبكاء الذي يتردد حتى يصير في الصوت غُنّة من جولان البكاء في الخياشيم. وذلك كلهُ من أجل الحزن الذي لا يُسرّ عنهُ الا بالصوت المبهم المطاوع لحركة الجسد اذا حُرّك من نوازي الأحزان الداعية الى هزّ الاعصاب وبالرجفة التي تلحقها من تنزّيه فيها. ولكن انظر الى « خنّ » وتدبّر فعل « الخاء » في توجيه المعنى الى الشموخ والاستعلاء ورفع الصوت بالبكاء، وخشونة الصوت التي تكون في هذا الضرب من البكاء او الضحك المشوب بالترفع والاشمئزاز؛ والى التذمّر والمعالجة التي عبدها في البدء بالخاء. ومن أجل هذا يتباين الانين والحنين من « الخنين » تبايناً صحيحاً في الدلالة على هذا الأنين المشوب بالصوت الذي وصفناه لك

ونحن نقف بالقول عند هذا الحدّ الذي حدّه الفرق الصوتي أيضاً بين النون والراء التي تليها في المخرج، ولعلك قد رضيت عن هذا الضرب من النظر، ولذلك تحمل نفسك على معاناته وتكلفه، ولعلك تجد لهُ من الطرافة والحسن واللذة، ما يجعلك تمضي في اتمام ما اسقطناه من كلامنا. فاذا فعلت عرفت نصف هذه اللغة، وملابستها للطبع والطبيعة والفطرة؛ وان اصحاب هذا اللسان كانوا ارقّ الناس احساساً، وألطفهم فهماً، وأحسنهم تودياً الى المعاني، وأنفذهم لسحر الطبيعة وأنغامها ولغتها التي تجري في ارواح الشعراء بالمعاني والاحلام

واعلم انما اخذنا لك من ابواب الكلام في هذه الكلمات، ما يُعَدّ من أصول المادة اللغوية التي يكون الحرف دالاً عليها، وتركنا ما هو مجاز واستعارة في مذهبنا، وان كان اصحاب علم اللغة يعدّونه من أصل المادة أيضاً. واذا جاء أوان شرح المجاز من المعنى الاصلي الى المعنى الذي انتقل اليه اللفظ بعد، عرفت من هذه اللغة شريفة جليلة دقيقة التركيب، مع ما تبين في قمالتها من النبل والاستواء والاستقامة على مذهب لا يتخاذل ولا يتناقض ولا يختلُّ والله المستعان